

الاسلوبية الى اين؟

الدكتور احمد مطهوري

عضو المجمع

كلية الآداب - جامعة بغداد

الأدب تعبير عن الحياة وتصوير للمشاعر الذاتية والجماعية ، والنقد ميزان الأدب ومقاييس الحكم عليه ، وهمما غير ثابتين ، لأن الحياة متغيرة والمواقف متفاوتة ، ودراستهما تقضي الوقوف على جوانبها المختلفة ورصد الاتجاهات والتىارات التي تقضي الى لون جديد من الأدب والنقد . وقد عرف العصر الحديث تحولات أدبية ونقدية ؛ وظهرت مذاهب لونت الابداع وحركت الأقلام وأثارت الصراع ، وشهد الوطن العربي ألوانا من تلك التحولات ، فبعد أن كان الصراع بين القديم والجديد عنيفا ، والتعصب للذاتية والواقعية كبيرا ، بدأ التراغ بين البنويين وخصومهم ، وبين الاسلوبيين ومنازعيمهم وكان كل فريق يصدر عما استقر في ذهنه وآمن به ايmana لا يرقى اليه ظن ولا يخامر ريب . وقديما كان مثل هذا الصراع غير أنه لم يصل الى التكفير والاستعداء أو الوصف بالجهل والتخلف أو الخروج على أصلحة الفكر العربي ومقومات الأمة الثقافية . وكان السلف اكثر تفتحا ، وأرحب صدرا ، وكانوا يتفاعلون مع الثقافات حتى إذا ما اتضحت السبيل وظهر الحق صرحا بما آمنوا وأعلنوا رأيهم مؤيداً بالحججة والدليل . واليوم لاحت في الأفق الأدبي مذاهب واتجاهات

وتلقفها الباحثون العرب ، وكانت « الأسلوبية » قد أثارت الأذهان ونبهت على لون من البحث جديد، فتعصب لها قوم وسخر منها قوم ونأوا عنها معرضين. عرف العرب مصطلح « الأسلوب » ، وهو من سطر التخييل ، لأن كل طريق ممتد أسلوب ، وقالوا : إن الأسلوب هو الطريق والوجه والمذهب ، والجمع « أساليب » ، وهو الفن ، يقال : أخذ فلان في أساليب من القول ، أي : أفنين منه (١) .

والأسلوب عند ابن قتيبة (- ٢٧٦ هـ) طريقة العرب في النظم ، والشاعر المجيد « مَنْ سَلَكَ هَذِهِ الْأَسَالِيبَ ، وَعَدَلَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْسَامِ فَلَمْ يَجْعَلْ وَاحِدًا مِنْهَا أَغْلَبَ عَلَى الشِّعْرِ ، وَلَمْ يَطْلُ فِيمَلِ السَّامِعِينَ ، وَلَمْ يَقْطَعْ وَبِالنُّفُوسِ ظِمَاءً إِلَى الْمُزِيدِ » (٢) . ويستحب له « أَلَا يَسْلُكَ فِيمَا يَقُولُ أَسَالِيبَ تِي لَا تَصْحُ فِي الْوَزْنِ وَلَا تَحْلُو فِي الْأَسْمَاعِ » (٣) . وكان هذا مقياساً لمعرفة فضل القرآن ، فلا يعرفه إلا « من كثُر نظره فيه واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتناها في الأساليب » (٤) .

وحمل اللاحقون هذا المعنى ~~وَعَرَفُوا أَنَّ الْأَسَالِيبَ~~ مختلفة باختلاف الأغراض والمذاهب ، فقال القاضي الجرجاني (- ٥٣٩٢) : « كَانَ الْقَوْمُ يَخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ ، وَتَبَيَّنَ فِيهِ أَحْوَالُهُمْ فَيُرِقُ شِعْرَ أَحَدِهِمْ وَيُصْلِبُ شِعْرَ الْآخِرِ ، وَيُسْهِلُ لِفَظَ أَحَدِهِمْ وَيَتَوَعَّرُ مِنْطَقَ غَيْرِهِ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِحَسْبِ اخْتِلَافِ الطَّبَائِعِ وَتَرْكِيبِ الْخَلْقِ ، فَإِنْ سَلَامَةُ الْفَظِ تَبِعُ سَلَامَةَ الطَّبَعِ وَدَمَاثَةُ الْكَلَامِ بِقَدْرِ دَمَاثَةِ الْخَلْقِ » (٥) . وأوصى بتعدد الأساليب فقال : « وَلَا آمُرُكَ بِاجْرَاءِ أَنْوَاعِ الشِّعْرِ كُلَّهُ مُجْرِي

(١) لسان العرب (سلب) .

(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ٧٥ .

(٣) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٠٢ .

(٤) تأويل مشكل القرآن ص ١٠ .

(٥) الوساطة بين المتنبي وخصوصه ص ١٧ .

واحدا ، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه ، بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني ، فلا يكون غزلك كافتخارك ، ولا مدحلك كوعيتك ، ولا هجاؤك كاستبطائاك ، ولا هزلك بمنزلة جدك ، ولا تعرىضك مثل تصريحك ، بل ترب كلا مرتبته وتوفيه حقه ، فتلطف إذا تغزلت ، وتفخم إذا افخرت وتنصرف للمدح تصرف موقعه ، فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح البلاقة والظرف ، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجرم والمدام فلكل واحد من الأمرين نهج هوأمك به ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه».(٦)

وذهب الخطابي (٣٨٨هـ) إلى هذا المعنى ، فالأسلوب هو الطرق والمذاهب وأودية الكلام المختلفة ، وربط بينه وبين الغرض والموضوع (٧) ، ولم يخرج الباقلاني (٤٠٣هـ) والخاتمي (٣٨٨هـ) وابن رشيق (٤٦٣هـ) والمحصري (٤٥٣هـ) عن هذا الاتجاه كثيراً (٨) .

وببدأ تعريف الأسلوب يتضح ، وأخذت الأساليب تتجلّى وبيدو أثراها في إخراج المعاني ، ومزج عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ) بين الأسلوب والنظم فقال : « واعلم أنَّ الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه ، أن يبتدىء الشاعر في معنى له وغيره أسلوباً – والأسلوب : الضرب من النظم والطريقة فيه – فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجيء به في شعره فيشهه بمن يقطع من أديمه نعلا على مثال نعل قد قطعها صاحبها فيقال : قد احتذى على مثاله».(٩) ولا يظهر هذا التقليد إذا اتخذ الشاعر أسلوباً

(٦) الوساطة ص ٢٤.

(٧) ينظر بيان اعجاز القرآن – ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ص ٤٢ ، ٦٠ .

(٨) ينظر اعجاز القرآن ص ٧٥ ، حلية المحاضرة ج ١ ص ١٢٤ ، العمدة ج ١

ص ٢٥٧ ، زهر الآداب ج ١ ص ٦ .

(٩) دلائل الاعجاز ص ٣٦١ .

خاصاً ، وأبرز المعنى بصورة جديدة ، ولا تقع السرقة إلا إذا سلخ الكلام سلخاً ، أو حَوَّرْ قليلاً ، كأن يقول القائل :

ذر المآثر لاتذهب لطلبهها واجلس فانك أنت الآكل الابس
وهو تحريف لقول الحطيئة :

دع المكارم لاترحل ابغيتها واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي

والاسلوب هو الذي يرفع الكلام ويجعله مونقاً بليغاً ، والفرق كبير بين قول الناس : « الطبع لا يتغير ، ولست تستطيع أن تخرج الانسان عما جبل عليه »
وقول المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل
فييت الشاعر « قد خرج في أحسن صورة ، وتراء قد تحول جوهرة بعد أن كان خرزة ، وصار أعجب شيء بعد أن لم يكن شيئاً » (١٠) .

وانتفع جار الله الزمخشري (٥٢٨هـ) بنظرية النظم في تفسيره « الكشاف » عند تعرضه للأُساليب المختلفة في القرآن الكريم ، وربط بينها وبين المواقف ، ولعل نظرته الى الالتفاتات تفصح عن إدراكه لأهمية الأسلوب وصلته بالمعنى (١١) .

وأنذ السكاكي (٦٢٦هـ) بهذه النظرة وإن لم يكن أدبياً مرهف الحسن ،
ونظر الى الالتفاتات كما فسره الزمخشري (١٢) ، وربط بين الأسلوب وخروج الكلام على مقتضى الظاهر فقال : « وهذا النوع - أعني اخراج الكلام لاعلى مقتضى الظاهر أُساليب متفرنة ، إذ ما من مقتضى كلام ظاهري إلا وهذا النوع مدخل فيه بجهة من جهات البلاغة على مانبه على ذلك منذ اعتبرنا بشأن هذه

(١٠) دلائل الاعجاز ص ٣٢٤ .

(١١) ينظر الكشاف ج ١ ص ١١ .

(١٢) ينظر مفتاح العلوم ص ٩٥ .

الصناعة ونرشد اليه تارة بالتصريح وتارات بالفحوى ، ولكل من تلك الاساليب عرق في البلاغة يتسرّب من أفنين سحرها «(١٣)» .

ولم يحدد ضياء الدين بن الأثير (٥٦٣٧--٥٦٨٤) معنى الأسلوب وإن كان يريد به الطريقة وأوجه التصرف في المعنى وآخرجه بأساليب تظهر المعنى وتفتن فيه (١٤) . وظل هذا المعنى مدار البحث ، فالاسلوب عند حازم القرطا جني (٥٦٨٤) الطريقة ، والأساليب تنوع بحسب مسالك الشعراء في كل طريقة من طرق الشعر ، وبحسب تصعيد النقوس فيها إلى حزونة الحشون أو تصويبها إلى سهولة الرقة ، أو سلوكها مذهبًا وسطاً بين ما لان وما خشن من ذلك ، فللكلام بحسب هذه الانحاء ثلاثة أساليب ينحى فيها بحسب البساطة والتركيب أنحاء يختلف الناس فيما تميل بهم أهواهم إليه من ذلك بحسب اختلاف طباعهم (١٥) ويأتي الأسلوب عنده بمعنى صورة التعبير أو هيئته (١٦) .

واستعمل السجلماسي (بعد ٧٠٤هـ) الأسلوب بمعنى الأنواع والطرايق ، وأطلق على فنون البلاغة مصطلح ~~الأسلوب~~ فسمى أحد كتبه «المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع» أي انه الفنون البلاغية كالتشبيه والاستعارة والاشارة والبالغة والتضمين (١٧) ، وهو ما ذهب إليه ابن البناء المراكشي (القرن الثامن هـ) فأطلق الأساليب على فنون البلاغة المختلفة (١٨) .

والاسلوب عند العلوي (٧٤٩هـ) هو التفنن في الكلام ومراعاة ماقتضيه

(١٣) مفتاح العلوم ص ١٥٥ .

(١٤) ينظر المثل السائر ج ١ ص ١١٢ ، ٣٣٠ ، ج ٢ ص ١٥ ، ١١٩ ، ١٧١ ، ١٨٦ ، ٢٧٢ ، ٤٠٩ .

(١٥) ينظر منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ٣٥٤ .

(١٦) ينظر منهاج البلغاء ص ٣٦٣ .

(١٧) ينظر المنزع البديع ص ٢٠٨ ، ٢٦١ .

(١٨) ينظر الروض المريح ص ١٧٣ .

أصول علم النحو وفروعه (١٩) ، وهذا هو النظم الذي عرفه عبدالقاهر بقوله : « ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف منهاجه التي نهجت فلاتزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها» (٢٠) وتتفاوت الأساليب وطرائق التعبير باختلاف النظم ووضع الكلام .

ولم يخرج المتأخرون عن هذا المعنى ، وكان ابن خلدون (- ٨٠٨) قد قال : « ولنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم ، فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه . ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب ، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض ، فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية ، وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، وتلك الصورة ينتفع بها المذهب من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كال قالب أو المنوال ثم ينتهي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الأعراب والبيان فيرصفها فيه رصاً كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الواقية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي ، فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة (٢١) » .

وهذا تعريف دقيق فرق فيه ابن خلدون بين اللغة والأسلوب ، وبين التراكيب والأسلوب ، وبين الوزن والأسلوب ، وقرر أن الأسلوب هو المنوال الذي

(١٩) ينظر الطراز ج ١ ص ١٥٨ ، ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٢٠) دلائل الاعجاز ص ٦٤ .

(٢١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٠ .

تنسج فيه التراكيب ، أو القالب الذي يفرغ فيه الكلام ، وأن لكل فن أساليب تختص به ولا تصلح لغيره . وكان قد نبه على اختلاف الأساليب باختلاف الزمان ، ودعا إلى مطابقتها لمقتضى الحال ، فان « المقامات مختلفة ، ولكل مقام أسلوب يخصه»^(٢٢) . وهذا القول هو صفة ما أشار إليه القدماء فهم قد ربطوا بين الأسلوب والتصريف في المعنى واختلاف المواقف والزمان وطبيعة الموضوع ، وربط عبدالقاهر بينه وبين النظم ، وهو دراسة أسلوب الكلام من حيث التعبير والتصوير والتحسين ، ولا يقع إلا من خلال النظم لأن « الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون ، لانه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوجه فيما بينها حكم من أحكام النحو فلا يتصور أن يكون هنا فعل أو اسم ، قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره»^(٢٣) ، ولا يؤتى بالتحسين إلا إذا طلب المعنى واستدعاه وساق نحوه^(٢٤) .

ولم يكن هذا المعنى بعيداً عن المعاصرين ، وألفت كتب في « الأسلوب » و« الدفاع عن البلاغة » وعرفوا الأسلوب بأنه « طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة في اختيار اللفاظ وتأليف الكلام»^(٢٥) .

وأنه « طريقة التفكير والتصوير والتعبير »^(٢٦) .

وأنه « الطريقة الخاصة التي يصوغ فيها الكاتب أفكاره ويبيّن بها عما يجول في نفسه من العواطف والانفعالات»^(٢٧) .

(٢٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٦٨ .

(٢٣) دلائل الاعجاز ص ٣٠١ - ٣٠٠ .

(٢٤) ينظر أسرار البلاغة ص ١٠ ، دلائل الاعجاز ص ٤٠٢ .

(٢٥) دفاع عن البلاغة ص ٧٠ .

(٢٦) الأسلوب لاحمد الشايب ص ٣٨ .

(٢٧) أسس النقد الأدبي عند العرب ص ٤٢٠ .

وانه « اختيار الالفاظ وترتيبها في شكل له أثره وطابعه في اللغة المستعملة » (٢٨) .
وانه « طريقة التعبير عن التفكير باختيار الالفاظ ورصفها في عبارات جميلة » (٢٩) .
وهذه حدود متشابهة ليس فيها تفرد ، لأنها صدرت عن المعنى الواضح
للاسلوب ولم ترق بعضهم هذه الحدود فمضى يلتمس تعريفاته مما شاع في الغرب
فالاسلوب « هيئة النص التي تحصل من اختيار الوسائل التعبيرية التي تحددها
طبيعة الكاتب وميوله » (٣٠) .
وهو « قوام الكشف لنمط التفكير عند صاحبه » (٣١) .

وهو « الميزة النوعية للأثر الأدبي » و « شرارة نوعية لا ينفذ اليها الفاحص إلا
بطريقة الحدس ومن أجل ذلك يحسن ولا يعبر عنه » . وهو « اختيار الكاتب
لما من شأنه أن يخرج بالعبارة عن حيادها وينقلها من درجتها الصفر إلى خطاب
يتميز بنفسه » أي : « أن الأسلوب رسالة أشتاتها شبكة من التوزيع قائمة على
مبدأ الاحتمال والتوقع » (٣٢) .
وهو « صراع متواصل عنيف ضد اعتباطية الدال » أي « أن الكتابة العادية
غير الكتابة الأدبية حيث تستعمل الدوال مدلولات » ويمكن أن يعبر عن المعاني
نفسها بدوال أخرى وهو ما لا يقع في النص الأدبي (٣٣) .

(٢٨) الاسلوب للدكتور محمد كامل جمعة ص ٦٣ .

(٢٩) في الاسلوب الادبي ص ٨٥ .

(٣٠) في الاسلوب الادبي ص ٨ .

(٣١) الاسلوبية والاسلوب ص ٦٤ .

(٣٢) النقد والحداثة ص ٥٤ ، ٥٨ .

(٣٣) ينظر كلام الهادي الطرايسى في مجلة فصول (المجلد الخامس - الجزء
الاول سنة ١٩٨٤) ص ٢٢٠ .

وكان بوفون قد قال من قبل إن «الأسلوب من الرجل نفسه» (٣٤) .

وتععددت حدود الأسلوب وأخذت مسارات لاتنتهي في كثير من الأحيان وان كانت في الأصل ترجع الى «طريقة الانسان في التعبير عن نفسه» (٣٥) لأن الاسلوب «أصعب ملكات الانسان تحديداً» ولأن محتواه «واسع الى حد أنه يتفجر غباراً من الفكر المستقلة إذا أخضعناه للتحليل» (٣٦) .

ودراسة الاسلوب قديمة ، وقد ارتبطت بالبلاغة وقواعدها المعيارية ، وكان هذا سبباً لتجاوزها في العصر الحديث وإهمالها والأخذ بالاسلوبية التي ظهر مصطلحها في بداية القرن العشرين .

ويرتكز حقلها على «ثنائية تكاملية هي من مواضعات التفكير اللساني ، وقد أحكم استغلالها علمياً سوسيراً وتمثل في تفكيك الظاهرة اللسانية الى واقعين : ظاهرة اللغة وظاهرة العبارة ، وقد اعتمد كل اللسانين بعد سوسيراً هذا الثنائي فحاولوا تركيزه في التحليل وتدقيقه بمصطلحات تتلون بسمات اتجاهاتهم اللسانية» (٣٧) . وهو ما اهتم به عبد القاهر حينما فرق بين اللغة والكلام وقرر أن اللغة تختص بالكلمات المفردة ومعانيها ، والعلم بها «لا يعدو أن يكون علماً باللغة وبنفس الكلم المفردة وبما طريقه الحفظ دون ما يستعان عليه بالنظر ويوصل اليه باعمال الفكر» (٣٨) ، وإن «الالفاظ المفردة التي هي أوضاع

(٣٤) دفاع عن البلاغة ص ٨١ ، النقد التطبيقي والموازنات ص ٢٠٥ ، والشائع ان عبارة بوفون «الاسلوب هو الرجل» ينظر مجلة فصول - بحث احمد درويش ص ٦١ ، في الاسلوب الادبي ص ٦٠ ، اسلوبية والاسلوب ص ٦٧ ، نظرية اللغة في النقد القديم ص ٥٠٠ .

(٣٥) معجم مصطلحات الادب ص ٥٤٢ ، معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب ص ٢٢ .

(٣٦) في الاسلوب الادبي ص ٥ ، وينظر في فلسفة النقد ص ٩١ .

(٣٧) اسلوبية والاسلوب ص ٣٨ .

(٣٨) دلائل الاعجاز ص ٣٠٣ .

الاسلوبية الى اين

اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها الى بعض »(٣٩) . وأكَدَ أن الكلام هو ما يؤدي به الإنسان أغراضه ومراميه ، لأنَّه وسيلة التعبير عما في مكتون الضمير . وقد انطلق في هذا من أن اللغة مشتركة بين أصحابها فلا يقع في ألفاظها تمايز بينهم وإنما يقع في الكلام ونظمه أي في الأسلوب . وبذلت معالم الأسلوبية تتحدد على يد شارل بالي وإن لم يقصد بعلم الأسلوب « دراسة الأسلوب الأدبي » لأن اهتمامه انصبَّ على اللغة نفسها»(٤٠) . وأخذت الأسلوبية طريقها إلى النقد الأدبي وأصبحت معلماً من معالم درسه الحديث وتعصب لها قوم وأنكرها قوم آخرون .

فما الأسلوبية؟

قالوا إنها « البحث عن الأسس الموضوعية لارساد علم الأسلوب » (٤١) . وإنها « منهج لساني تقوم على البحث فيما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولاً وعن أصناف الفنون الإنسانية ثانياً » أي أنها « وصف للنص الأدبي حسب طرائق مُستَقاة من علم اللسان » (٤٢) وإنها « نوع من الحوار الدائم بين القارئ والكاتب ~~يختلف من نص لآخر~~ من نص معين » (٤٣) . وإنها « طريقة في تحليل شكل النص مع الافادة من معطيات علم اللغة - اللسانيات » (٤٤) .

(٣٩) دلائل الاعجاز ص ٤١٥ .

(٤٠) ينظر نظرية الادب ص ٢٢٨ ، الأسلوب والاسلوبية ص ٣٧ ، ١٠٨ ،
البلاغة والاسلوبية ص ١١٩ ، الأسلوبية والاسلوب ص ٨٩ ، التركيب
اللغوي للادب ص ١٠١ .

(٤١) الأسلوبية والاسلوب ص ٣٤ . (٤٢) النقد والحداثة ص ٥٨ .

(٤٣) دليل الدراسات الأسلوبية ص ٧ .

(٤٤) مجلة آداب المستنصرية (الجزء السادس عشر سنة ١٩٨٨) ص ٢٣٩ .
بحث الدكتور سمير شريف ستيفان الموسوم بـ « بحث منهج التحليل
اللغوي في النقد الأدبي » .

وبعض هذه التعريفات لا توضح معنى الاسلوبيه وتحدد مداها ، لأنها انطلقت من وجهات نظر متفاوتة ، فما الاسس الموضوعية ؟ وما ذلك الحوار الدائم بين القارئ والكاتب ؟ وما تلك الطرائق المستقاة من اللسانيات ؟ هذه اسئلة لا تجد الأجوبة عنها الا في أذهان بعضهم ، وان كانت الحرية مجال الأدب والنقد ولكن لا ينبغي أن تكون مطلقة لا يلتقي النقاد فيها على خيط رفيع يكون مؤشرا للباحثين .

وظن بعضهم أن « الاسلوبيه » تتضح إذا ارتبطت بالعلم فقيل أنها « علم الاسلوب » وتعصب لها تعصبا عظيما ودعا الى أن تناهض المذاهب القديمة وتهدمها لأنها الوريث الشرعي للبلاغة (٤٥) . وأنكر بعضهم علميتها فقال : « إنه ليس من المحتمل أن تكون الدراسة الاسلوبيه للأدب يوما علما من العلوم ، ولكن لا حاجة لها أن تكون فوضى من الأخيلة الذاتية » (٤٦) . وذهب بعضهم الى أنها « علم غير ذي موضوع » (٤٧) ، وقال بعضهم أنها « تحليل لغوي موضوعه الاسلوب ، وشرطه الموضوعية ، وركيزته الألسنية ، بيد أن التحليل وما يتبع عنه من معرفة لا يكفي لتحديد أي علم من العلوم ، والموضوعية شرط لازم ، ولكنه غير كاف للكلام على العلم ، ولا تصبح الاسلوبيه علما لاقتباسها من علوم أخرى كالألسنية والاحصاء ، فالتحليل الألسني لا يندمج في التحليل الاسلوبي وما يفهم الاحصاء لا يفهم الاسلوبيه بالضرورة والعكس صحيح أيضاً» (٤٨)

(٤٥) ينظر الاسلوبيه والاسلوب ص ٧ ، ١٠٧ ، النقد والحداثة ص ٤٤ ، مجلة فصول (المجلد الخامس - الجزء الاول سنة ١٩٨٤) ص ٢١٩ ، ٢١٦ .

(٤٦) الاسلوب والاسلوبية ص ٣٠ .

(٤٧) مجلة فصول ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(٤٨) دليل الدراسات الاسلوبيه ص ٣٧ . ومصطلح « الاسلوبيه » اوفق من مصطلح « علم الاسلوب » ، وهي لفظة تقرها العربية لأنها مصدر صناعي عرف منذ القديم وأقره مجمع اللغة العربية في القاهرة بقوله : « اذا أريده صنع مصدر من الكلمة يراد عليها ياء النسب والتاء » . ينظر مجموعة القرارات العلمية ص ٢١ .

وهذا الخلاف في تحديد الأسلوبية وموقعها في الدراسات ادى الى طريقين :
الأول : خضوع النقد للمعايير الصارمة التي ناءت بها كتب البلاغة القديمة ،
وحفلت بها كتب التحليل اللغوي الحديث .

الثاني : الانطلاق في التحليل ، والافتراق بين النقاد ، وهو ما اضفى على
النقد ذاتية ابعدته عن الموضوعية وجعلته كلاما ليس فيه اتفاق .

وكان قد ظهر للأسلوبية مفهومان في مطلع هذا القرن :
الأول : دراسة الصلة بين الشكل وال فكرة ولاسيما في ميدان الخطابة عند
القدماء .

الثاني : الطريقة الفردية في الأسلوب او دراسة النقد الأسلوبى وهي تمثل
في بحث الصلات التي تربط بين التعبيرات الفردية او الجماعية (٤٩) . وكان
الأخير مدار الخلاف بين الأسلوبين وتعدد اتجاهاتهم ، فهناك الأسلوبية
التعبيرية ، والاسلوبية البنائية ، والاسلوبية التأصيلية ، والاسلوبية النفسية
الاجتماعية ، والاسلوبية الأدبية ^{وهناك المدرسة القرئية} ، والمدرسة الإسبانية ،
والمدرسة الاميركية (٥٠) . وأدى هذا التعدد الى الصراع العنيف بين الانصار
وخصومهم ، وانتهى الأمر الى طريق مسدود أو تكفير لا يقره البحث العلمي
والمنهج السليم .

ولعل من اهم السمات المميزة للدراسة الأسلوبية انها « تبدأ من العمل
الادبي نفسه ، ومن الكلمات والطريقة التي ترتبط في القطعة الكتابية الخاصة .
وليس ثمة حدود يحضر على طالب الأسلوب تجاوزها ، ولكنه يبدأ في الأقل

(٤٩) ينظر البلاغة والاسلوبية ص ١٢٨ .

(٥٠) تنظر مجلة فصول (المجلد الخامس - الجزء الاول سنة ١٩٨٤) ص ٤٨ ،
٥ ، ٦٠ ، دليل الدراسات الأسلوبية ص ٧ - ٨ ، التركيب اللغوي

للأدب ص ٩٨ - ١٠٨ .

من نقطة ايجابية يمكن تحديدها » (٥١) . أي « ليس من هم الأسلوبية أن تتعرض لرسالة الأدب وأهدافه – مثلاً – كما أنها لا تتدخل في التمييز بين مذاهب الأدب المختلفة ، وهي أمور تعرضت لها اتجاهات أخرى كتلك التي ترى في الأدب تمثيلاً لتجربة بشرية ، أو التي ترى فيه نقداً للحياة ، أو تلك التي ترى فيه فناً «للفن» ، أو تلك التي ترى فيه وسيلة للتعبير عن الذات الفردية أو تلك التي تسعى من خلاله إلى اظهار ما في الحياة من حسن أو قبح . وكما أنه ليس من هم الأسلوبية تناول أهداف الأدب وغاياته ، كذلك ليس من همها أن تتدخل في هذا الأدب بتقييمه ، وإنما يتسع مجال ذلك لاتجاهات نقدية أخرى منها ما يبني على الذوق الشخصي ، ومنها ما يبني على بعض القواعد الجمالية المحددة » (٥٢) .

وهذا جانب من النقد الأدبي لا يمثل نظرية شاملة كما يذهب إليه بعضهم فيقول إنها « منهج علمي في طرق الأسلوب الأدبي » وإنها « نظرية شمولية فيه من حيث إنها تحده وتبسيط المسيل العملية لتحليله اختبارياً » وإن « كل نظرية نقدية في الأدب تقتضي الاحتكام إلى مقياس الأسلوب باعتباره المظهر الفني الذي به قوام الابداع الأدبي » (٥٣) .

والأسلوبية « تدرس في النص اللغوي العناصر التي يستعملها الكاتب ليفرض على القارئ طريقة تفكيره » أي إنها تدرس « خصائص البلاغة – لا كلام عادي – وإنما على أساس أنها تبرز خصائص شخصية الكاتب وتجلب انتباه القارئ ». وإن التفكير الأسلوبي « يقصر نفسه على النص في حد ذاته بعزل كل ما يتجاوزه من مقاييس تاريخية أو نفسية » وإنها « علم يهدف إلى الكشف عن العناصر المميزة التي بها يستطيع المؤلف الباث مراقبة حرية الادراك لدى

(٥١) الاسلوب والاسلوبية ص ٤٩ .

(٥٢) البلاغة والاسلوبية ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(٥٣) الاسلوبية والاسلوب ص ١٠٩ – ١١٠ .

القارئ المتقبل والتي بها يستطيع ايضاً أن يفرض على المتقبل وجهة نظره في الفهم والادراك ». وان مهمتها «أن تتبع بصمات الشحن في الخطاب عامة او ما يسميه اللغويون يالتسيويه الذي يصيب به سامعه في ضرب من العدوى »، وانها بعد ذلك «رفع الحواجز بين اللغة وتاريخ الأدب ، وهي بذلك علم شامل للدلالات المكرسة في جهاز الأثر الأدبي » (٥٤) .

وهذا حكم يصعب تطبيقه لاظهار ما في النص من خصائص متفردة وقدرة على التعبير والاثارة لينفعل المتلقى كما انفعل الأديب وهو يعبر عن تجربته . ولن يقدر المعاصبون لها أن يضفوا عليها الكمال او يعدوها المنهج الشامل الوحيد في دراسة الأدب ؛ لأنها مهما اتسعت « لا يمكن أن تشمل حقل الدراسة الأدبية بأكمله ، وان كثيراً مما يهتم به طلاب الأدب يحتوي على وحدات اكبر من ان تستطيع دراسة الاسلوب التغلب عليها ، وهي الحبكة ، والشخصية ، وتناسق الأفكار » (٥٥) . ودراسة النص دراسة اسلوبية لا تحل مشكلات النقد لأنها تنطلق لغويًا من النص ، وتعد كل نص فريداً لا يقاد عليه ، وفي ذلك غياب للأصول التي يتخذها النقاد أساساً لاستكشاف قيمة النص وتفرد الأديب . ومن ذلك تحليل قصيدة « ولد المدى » لأحمد شوقي (٥٦) ، وبعد ان مهد الباحث لنقده بالكلام على اسلوبية التنظيرية ، وأسلوبية التطبيقية ، وأسلوبية التحليل الأصغر ، وأسلوبية التحليل الأكبر ، وأسلوبية الواقع ، وأسلوبية الظواهر ، وأسلوبية النماذج ، وأسلوبية السياق ، وأسلوبية الأثر ، ونمط التفاصيل ، ونمط التداخل ، ونمط التضاد ، بدأت المعادلات الرياضية محددة معيار الكشف ليغدو التضاد مفتاح سر القصيدة الشعري الذي جلاه الباحث باربعة معايير استكشافية هي : معيار المفاصيل ، ومعيار المضامين ، ومعيار الفنون ، ومعيار البنية التحوية.

(٥٤) النقد والحداثة ص ٥١ - ٥٥ .

(٥٥) الاسلوب والاسلوبية ص ١٠٩ .

(٥٦) ينظر النقد والحداثة ص ٦١ - ١٠١ .

وكانت أول تجليات الظاهرة الأسلوبية بناء القصيدة على تضافر المفاسد وهي «تشابك مواطن الانتقال من شحنة اخبارية الى اخرى» وتنصل به ظاهرة التصاهر التي تؤدي الى أن يكون الخطاب الشعري ثلاثة محاور هي : دلالات تنصل بالرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - وبالدين الاسلامي وبالامة الاسلامية ، واذا ترجم ذلك الى مركبات جهاز البث الشعري كان ما يتصل بالرسول الكريم يمثل طرف المرسل - بالفتح - وما يتصل بالدين الاسلامي يمثل الرسالة ، وما يتصل بالأمة الاسلامية يقوم مقام المرسل اليه . وبني الباحث عليه جلولا ضم فيه الجهاز الشعري وهو بنية الشعر وبنية الدلالة والطرف المتلقى ، والجهاز المرجعي محمد - صلى الله عليه وسلم - والاسلام والأمة الاسلامية ، والجهاز المفهومي وهو المرسل - بالفتح - والرسالة والمرسل اليه . ويمضي الباحث في هذه السبيل ويدرك احصائية للضمائر ، ويرسم جلولا عموديا يتضمن ارقاما صغيرة وارقاما كبيرة وارقاما لاتينية ، ويستنطق المعادلات الرياضية ، فيقول : «فلو رمنا تجريد بنية صورية من بنية الانتظام الكلامي في الخطاب الشعري - ~~وهو تجريد يزعزع الشعر وأهل الشعر~~ - لأمكننا أن نرمز إلى الحركة الداخلية في توادي نمطي الصوغ الابداعي بخط بياني يرسم على محورين متصادمين ويكون منحنينا يتضاعد فيبلغ قمته في نقطة معينة ، ثم ينحدر بعدها متنازا لا فيكون نصفاه متناظرين لو اتخذت المحور الرأسي وطويت وفقه مارسمته عليه لتطابق الجنحان . ومعلوم أن المعادلة الجبرية التي تنشئ هذا الخط البياني في احدى احتمالياتها هي من شكل :

$$أس ٢ + ب س + ج = صفر$$

ولكن الذي يعنينا نحن العاكفين على الابداع وأساليب الابداع انما هو التذكير بان الشرط الأساسي لتحول هذه المعادلة الجبرية الى ذلك الخط البياني الذي سنمه قمة عليا هو أن يكون المحدد - بالكسر - العددي (أ) ذا قيمة موجبة ، اذ لو جاء سالبا لأصبح الخط تنازليا قمته من أسفل » .

ويتوالى الكلام وتشابك المصطلحات والالفاظ ، ويختتم الباحث تحليله للقصيدة بقوله : « لقد رأينا كيف ابنت قصيدة « ولد المدى » على نمودج اسلوبي مداره ظاهرة التضاد تتحقق في المفاسيل والمضامين وأجريت في القنوات الأدائية ثم تشكلت في البناء التركيبي فجاء النص نسيجا لحمته الاختلف وسداه الاختلاف ، فلا التكثيف بمفض الى الاشباع ولا الاطراد يبالغ حد الرتابة ، فاذا بالتضاد صورة للتعدد في صلب الوحدة ، واذا به مفتاح تنكشف به ابداعية الشعر في احدى اللوحات الروائع التي خطتها ريشة أمير الشعر . ومن شاء التوسل بالتشكيل الصوري تراءت له « ولد المدى » هرما واجهاته الأربع هي : المفاسيل ، والمدلائل ، والقنوات ، والبني النحوية ، وهو زجاجي المادة بلوري التركيب يدور على رُكح - محوره البناء الشعري - يختاره فيجمع قمته الى مركز قاعدته ، فمن أي الواجهات نظرت بدت لك البلورات متعاكسة الاشعاع فاذا ادرت اهرم على قطبه الرأسي تبدلت انكسارات الأشعة وتحولت صور البلورات عند انعكاسها على سطح الواجهات . أما مركز ثقله فهو نقطة الكثافة ^{الموئلة}_{للانبعاث} توليد التضاد للطاقة الابداعية عند تمازج المكونات » .

هذا لون من التحليل الأسلوبي لا يقدم مادة ، ولا يحقق هدفا ، ولا يظهر قيمة للنص ، وانما هو قدرة انشائية انطلق فيها الباحث من تصوره لمنهج يزيد فرضه على الدراسات النقدية . إن دراسة النص من الداخل منهج سليم غير أن تحليل قصيدة « ولد المدى » بهذه الطريقة أفقد النص قيمته وجعله أسيرا لفرضيات قسرية ، ومصطلحات مشابكة ، ومعادلات رياضية لا يتحملها النص ، وفي ذلك قضاء على روح القصيدة التي تعد من أجمل الشعر الغنائي في العصر الحديث .

إن تحليل النص مهمة شاقة ، وهو لا يقتصر على دراسة العلاقات اللغوية والاحصائيات والمعادلات ، وانما ينبغي الوقوف على الالفاظ والتركيب

والصور ، وايضاً العلاقة بينها ، ولم يكن البلاغيون والقاد العرب على خطأ حينما حلوا الكلام وفرقوا بين تعبير وتعبير ، او تصوير وتصوير ، واعطوا حكماً يعتمد على التفسير والتحليل ، وكان عبد القاهر صادقاً في تحليله دقيقاً في تعليمه لأن « لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب لها قياساً ما ، وأن تصفها وصفاً مجملًا ، وتقول فيها قولًا مرسلًا ، بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تفصل القول وتحصل ، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلام وتعدّها واحدة واحدة ، وتسميها شيئاً شيئاً ، وتكون معرفتك معرفة الصنع الحاذق الذي يعلم كل خيط من البريم الذي في الديباج وكل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطع وكل آجرة من الآجر في البناء البديع » (٥٧) . وهذا منهج واضح يهدف إلى التفصيل في دراسة النص والكشف عما فيه من ابداع ، ويسعى إلى الوقوف على ما بين الألفاظ من علاقات تحدد المعنى وتبيّنه ، ويدعو إلى استجلاء مواضع الاستحسان والاستهجان إذ « لابد لكل كلام تستحسن ولفظ تستجيده من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقوله ، وأن يكون ~~تعملاً~~ ^{تعملاً} ~~في~~ ^{في} العبرة عن ذاك سبيل ، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل » (٥٨) .

وكان تحليل عبد القاهر — على الرغم من اقتصاره على البيت او المقطوعة — من اروع ماترك القدماء ، وهو اثر ينبغي الوقوف عنده والأخذ منه ؛ لأنه يلقي ضوءاً على النص ويوضح قيمته وأثره . ولعل تحليله للأبيات (٥٩) :

ولَا قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على دهم المهارى رحالنا

ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

(٥٧) دلائل الاعجاز ص ٣٠ - ٣١ . (٥٨) دلائل الاعجاز ص ٣٣ - ٣٤ .

(٥٩) أسرار البلاغة ص ٢١ - ٢٤ .

أخذنا بأطراف الأحاديث بيتنا

وسالت بأعناق المطى الأباطح

من أروع ما ترك القدماء فقد ربط عبد القاهر بين أجزاء الأبيات الثلاثة ، وأوضح موقف الحجاج وهو يعودون الى ديارهم بعد أن أدوا مناسك الحج ، وهو موقف لا يدركه إلاّ من ملأ الله قلبه بالإيمان وحج البيت الحرام . لقد قضى الحجاج من مني كل حاجة وطاعوا طواف الوداع وهو إيدان بمعادرة مكة ، وأعدوا متاعهم وهو في شغل عن كل ما يحيط بهم لفرحتهم بأداء الفريضة والعودة الى الأهل والوطن ، وساروا قاصدين ديارهم وهو يعيدون ذكريات الحج ويستعجلون لقاء الأهل ، وكانت مطفهم تسرع بهم لتلقي رحالتها بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة . وقد عبر الشاعر عن ذلك أحسن تعبير وأخبر « بسرعة السير ووطأة الظهر ، إذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح ، وكان في ذلك ما يؤكّد ما قبله ، لأن الظهور إذا كانت وطئة وكان سيرها السير السهل السريع زاد ذلك في نشاط الركبان ، ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيبا ثم قال : « بأعناق المطى » ولم يقل « بالطى » لأن السرعة والبطء يظهران غالبا في ~~أعناقها~~ ^{وبيك أمرهما} هواديها وصدرورها ، وسائل أجزائها تستند اليها في الحركة وتتبعها في الثقل والخففة ، ويعبر عن المرح والنشاط إذا كانا في أنفسها بأفعال خاصة في العنق والرأس ، ويدل عليهما بشمائل مخصوصة في المقاديم » .

وتحليله لأبيات البحترى (٦٠) :

بلونا ضرائب من قد نرى

فما إن رأينا لفتح ضريبنا

هو المرء أبدت له الحادثا

ت عزماً وشيكًا ورأياً صليباً

تنقل في خلقي سؤدد

سماحة مرجى وبأسا مهيبا

فكايسيف إن جئته صارخا

وكالبحر أن جئته مستثيا

من أروع التحليل اللغوي المستند الى ما بين الالفاظ من علاقات ، والى وضعها الوضع الذي يدل على المعنى « فإذا رأيتها قد راقتك وكثرت عنك ، ووجدت لها اهتزازا في نفسك ، فعد فانظر في السبب واستقص في النظر ، فانك تعلم ضرورة أن ليس إلا» أنه قدم وأخر ، وعرف ونكر ، وحذف وأضمر ، وأعاد وكرر ، وتوخى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو فأصاب في ذلك كله ، ثم لطف موضع صوابه وأتى مأتى يوجب الفضيلة . أفلاترى أن أول شيء يروقك منها قوله : « هو المرء أبدت له الحادثات» ثم قوله : « تنقل في خلقي سؤدد » بتكيير « السؤدد » واضافة « الخلقين » اليه ثم قوله : « فكايسيف » ويعطيه بالفاء مع حذفه المبتدأ ، لأن المعنى لامحالة فهو كايسيف ، ثم تكريره الكاف في قوله : « وكالبحر » ثم أن قرن الى كل واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه ثم أخرج من كل واحد من الشرطين حالا على مثال ما أخرج من الآخر ، وذلك قوله : « صارخا » هناك ، و « مستثيا » ههنا . لاترى حسنا تسبه الى النظم ليس سببه ماعددت أو ما هو في حكم ما عدلت ، فاعرف ذلك » .

وتتضمن في تحليل النصين عدة امور :

الاول : التفصيل في التحليل .

الثاني : التعليل في النقد .

الثالث : الربط بين الالفاظ .

الرابع : اظهار دلالة الالفاظ في احوالها المختلفة .

الخامس : تبيان دلالة التراكيب ومعانيها .

ولا يقلل من هذا المنهج قدمه ، لانه مرتبط بروح اللغة العربية وعبر عن أصالتها وقد تطور الاسلوبية هذا المنهج وتضفي عليه طابع الحداثة لأن تلغيه أو ترده صورة مختلفة للنقد . وقد ظهرت دراسات لغوية أو اسلوبية بهذا المنحى ، وكانت أقرب الى روح العربية والنقد من تحليل قصيدة « ولد الهدى » وألّف في اظهار قيمة النص من خلال التعامل مع اللغة . ومن ذلك تحليل قصيدة « إرادة الحياة » لأبي القاسم الشابي (٦١) ، إذ اهتم الباحث ببنائها اللغوي وحدد الأفعال والمشتقات والاسماء ، وأوضح حركتها وصلتها فيما بينها ، ووقف عند بعض القضايا التي توضح النص وتظهر قيمته ومن ذلك : مصطريع الحركة والسكنون الذي ييلو في القصيدة محلنا سياقا فنيا منطلاقا نحو الانهاية . وقد تحرك هذا الاصطراع في محور زمني ، تحرك في اشاراتحدث والتجدد التي تجلت في اشارات المستقبل وهي الأفعال المضارعة وأفعال الأمر ، والأفعال الماضية التي وقعت في فعل الشرط : أو جوابه . وظهرت في اشارات الماضي وهي أفعال الماضي الخالصة التي لم تقع في معادلة الشرط والأفعال المضارعة المسبوقة بـ « لم » ولم تقع في المعادلة الشرطية أيضا . وتجلت في الاشارات السابقة وهي الاسماء المشتقة التي تحمل الحدث وتدل على التجدد ، وهي أسماء الفاعل والمفعول أو ما يسمى بالمشتقات الصريرحة .

واللون الثاني هو مصطريع المد والجزر الذي تحرك القصيدة فيه داخليا ، وهو مداران : مدار التوازن ثم كسر التوازن ، وقد انطلق في صدر القصيدة بثلاثة أبيات محكمة التوازن هي :

إذا الشعب يوماً أراد شيئاً

فلا بدّ أن يستجيب المقدر

(٦١) ينظر تshireح النص ص ١٢ - ٣٣ .

ولا بد للبيل أن ينجلي

ولا بد للقيد أن ينكسر

ومن لم يعانيه شوق الحيَا

ة تبخّر في جوّها واندثر

وهذه أبيات أحكم سبّكها في نظام توازنٍ يقوم على أساس تركيبية . ومدار الارتداد المتمثل في السكون عند نهاية البيت حيث سيطر على القصيدة مزاج سكوني من حيث صياغتها التي غلب عليها الجمود . ويستمر الباحث في تحليله اللغوي والإيقاعي مفسراً بناء القصيدة ومشيراً إلى ما فيها من حركة وسكون وتمدد وجزر ، وما فيها من ايقاع تولد من تعامل الشاعر مع الكلمات ولا سيما القوافي التي جاءت متفاوتة في ايقاعها لاختلاف الكلمات في نهاية الأبيات فهي اسم أو فعل أو مشتق ، وهذا التلون أضفى على القصيدة حركة حيناً وسكوناً حيناً آخر .

وهذا النوع من التحليل ينطلق من قدرة اللغة العربية على الابداع والتوصير وهو الحال من المحاكمة واصحاح المعيادلات الرياضية والخطوط البيانية والمصطلحات المضللة ، وهو قريب من تحليل عبد القاهر لأبيات البحترى وإن كان أكثر تفصيلاً وأوضاع استجلاء . وهذا التحليل على الرغم من أهميته أهمل كثيراً من جوانب النص ، إذ إنَّ التحليل الاسلوبى « يتعامل مع ثلاثة عناصر :

الأول : العنصر اللغوي ، إذ يعالج نصوصاً قامت اللغة بوضع شفترها .

الثاني : العنصر النفي الذي يؤدي إلى أن ندخل في حسابنا مقولات غير لغوية مثل المؤلف والقارئ والموقف التاريخي وهدف الرسالة وغيرها .

الثالث : العنصر الجمالي الأدبي ، ويكشف عن تأثير النص على القارئ وعن التفسير والتقويم الأدبيين له .

ومع أنه ينبغي للتحليل الاسلوبى أن يكون كاشفاً في جميع الحالات عن تلك العناصر الثلاثة فإنه من الوجهة العملية كثيراً ما يفضل بعضها مثل مؤلف النص أو الموقف

وليس في كثير من الدراسات الأسلوبية استيعاب للنص واظهار لقيمة اللغة وابراز دور المؤلف والمتلقى وايصاله لهدف الرسالة واستجلاء لتأثير النص وتقويمه ، وإنما هي خواطر يحاول أصحابها أن يفرضوها فرضا على النقاد بحججة الحداثة ، وقد نسوا أن النقد الأدبي عملية ابداعية تستند إلى موهبة فنية وثقافة عميقة ووضوح هدف ورؤيه ، وتعتمد على أصول تكون معالم يهتدى بها النقاد ليصلوا إلى نتائج محمودة وموافق يتبعها الآخرون منهجاً ينطلقون منه إلى رحاب النقد ^{الرواية} والأسلوبية بطريقتها الشكلية لاتخدام النقد لأنها تجرد النص من روحه وتفصله عن كل ما يحيط به ، ولا تنتهي إلى نتيجة تقنع أو تحقق هدفاً مرسوماً . وقد أدت إلى التقطاع وافتراق سبل النقاد ، وكانت كثرة المصطلحات وغموضها واختلاف النقاد في مدلولها ، والتنظير المعتمد على الآراء المتضاربة والاتجاهات المتباعدة سبباً في غياب النظرية النقدية وانعدام الرؤية ووضوح المهد ، وزادت المعادلات الرياضية والاحصائيات البيانية الأمر تعقيداً وجعلت النصوص ركاماً ، وقد يكون الاحصاء نافعاً في معرفة الصيغ ودلالتها على الثبوت أو التجدد ، وفي الكشف عن الالوان التعبيرية والتصويرية والتحسينية ، إلا أنه ينقلب حذلقة حينما يكون أساس النقد ومنطلق

٦٢) مجلة فصول (المجلد الخامس - الجزء الاول سنة ١٩٨٤) ص ٤٨ .
بحث الدكتور صلاح فضل الموسوم « علم الاسلوب وصلة بعلم اللغة » .

الدكتور احمد مطلوب

النقد . وقد تحدث الأجانب عن جدوى الطرق الاحصائية وأشاروا الى مقدار استجابة المتكلمين لها (٦٣) ، إلا ان بعض الباحثين العرب جعلها معيارا واتخذها شرعة ومنهاجا ، بحجة « أن دقة ظهور سمة لغوية في تعبير أديب معين لا تكفي في ادراكه النظرة العابرة أو الحاسة الذوقية ، بل لابد» من الارتكاز على علم الاحصاء الذي يصل بالنقد الى الدقة العلمية المطلوبة » (٦٤) ، وليس في هذه الحجة ما يرفع النص ويقربه الى الاذواق ؛ لأننا « عندما نعمد الى الاحصاء في دراسة الأساليب نحيل اللغة الأدبية الى شيء بلا لون ولا طعم ، لأننا نهمل ما في التراكيب المتعلقة بالتعبير من احساسات تتصل بالعالم النفسي » (٦٥) وكان للابتعاد عن البلاغة العربية أثر في جفاف النقد الاسلوبى ، فقد قالوا ان الاسلوبية وريث البلاغة ، أي أنها « بدليل في عصر البدائل» (٦٦) والمفهوم الاصولي للدليل « أن يتولد عن واقع معطى وريث ينفي بسوجب حضوره ما كان قد تولد عنه » أي ان الاسلوبية « امتداد للبلاغة ونفي لها في الوقت نفسه ، هي لها بثابة حبل التواصل وخط القطيعة في الوقت نفسه أيضاً» (٦٧) ولا يمكن أن تعايشا لأنهما تمثلان « شحتين متنافرتين متصادمتين لا يستقيم لهما تعايش آني في تفكير أصولي موحد ، والسبب في ذلك أن الاسلوبية قامت بديلًا من البلاغة ، فهي امتداد لها ونفي ، هي لها بثابة حبل التواصل وخط الفصل » (٦٨) ، وبعبارة واضحة ان البلاغة تخطتها العصر وتجاوزتها الحداثة ، وهذا فهم ينطلق من تعصب أو جهل أو دس ؛ لأن البلاغة ليست علمًا أو فنا انتهى فهي لم تنضج ولم تحرق أي أن دراستها واسعة سعة الفكر وتأمله ، ومتتجدة تجدد الأدب وتلونه ، وإنها ميدان رحب لمن يعرف دروبها ويدرك

(٦٣) ينظر الاسلوب والاسلوبية ص ٦١ وما بعدها .

(٦٤) البلاغة والاسلوبية ص ١٤١ . (٦٥) البلاغة والاسلوبية ص ١٣٩ .

(٦٦) الاسلوبية والاسلوب ص ٤٢ . (٦٧) الاسلوبية والاسلوب ص ٥٢ .

(٦٨) النقد والحداثة ص ٥٤ ؛ وينظر البلاغة والاسلوبية ص ١٩١ .

مقاصدها ويتذوق أسرارها . ولن يقلل من أهميتها ما قيل في نقدها وأن « من أبرز المفارقات بين المنظورين البلاغي والسلوبي ان البلاغة علم معياري يرسل الأحكام التقييمية ، ويرمي الى تعلم مادته ، وموضوعه بلاغة البيان ، بينما تنفي الاسلوبيه عن نفسها كل معيارية وتعزف عن ارسال الاحكام التقييمية بالمدح أو التهيج ، ولا تسعى الى غاية تعليمية البة . فالبلاغة تحكم بمقتضى أنماط مسبقة وتصنيفات جاهزة بينما تتحدد الاسلوبيه بقيود منهج العلوم الوصفية . والبلاغة ترمي الى خلق الابداع بوصايها التقييمية بينما تسعى الاسلوبيه الى تعليل الظاهرة بعد أن يتقرر وجودها . ومن المفارقات المقررة بين الجدولين ان البلاغة قد اعتمدت فصل الشكل عن المضمون في الخطاب اللساني فميزت في وسائلها العملية بين الاغراض والصور بينما ترحب الاسلوبيه عن كل مقياس ما قبلي ، وترفض مبدأ الفصل بين الدال والمدلول إذ لا وجود لكليهما الا متقاطعين ومكونين للدلالة ، فهما لها بمثابة وجهي ورقة واحدة » (٦٩) وهذا تكرار ل الكلام يقوله من لم يتعقق في دراسة البلاغة العربية ويعرف مسالكها ، واطلاق لاحكام تعسفية ، وهو قريب مما قاله بعضهم في الفرق بين البلاغة والنقد إذ « البلاغة ترشدنا بقواعدها الى الطرق والوسائل التي يجعل كلامنا نافعا مؤثرا ، والنقد يضع لنا المقاييس العامة التي نقدر بها ما في الكلام من فائدة او قوة او جمال » (٧٠) ، أي أن البلاغة أقرب الى الناحية الفنية إذا قادت قواعدها الى الابداع ، وانها اكثراً ما تعنى بالاسلوب ، أما النقد فيأتي دوره بعد أن تتم عملية الابداع ويعرض الأدب على مقاييسه ليحكم له أو عليه ، وانه يتناول المعاني والاساليب ، ولذلك كانت دائرته أرحب ميدانا . وليس هذا دقيقا لأن البلاغة – وإن كانت ترشد الأديب – تشمل المعاني والاساليب

(٦٩) الاسلوبيه والاسلوب ص ٥٢ - ٥٣ ، وينظر النقد والحداثة ص ٥٦ - ٥٧ ، والاسلوب والاسلوبية ص ١٩ .

(٧٠) الاسلوب لاحمد الشايب ص ٧ .

وهي وسيلة من وسائل النقد أي تشاركه في الحكم وترشد الناقد مثلاً ترشد الأديب . وينطبق هذا الحكم على البلاغة والأسلوبية ؛ لأن وسائل النقد والحكم على النص كثيرة ، ولن تشرم الأسلوبية إذا ابتعدت عن الدراسات اللسانية ونأت عن البحوث البلاغية ، وحدّت عن السبل الفنية ، ولعل البلاغة أكثر التصادف بالأسلوبية لأنهما ليستا « شحتين متنافرتين متصادمتين لا يستقيم لهما تعايش آني في تفكير أصولي موحد » وإنما هما من وسائل النقد، والبلاغة بعادتها التعبيرية والتصويرية والتحسينية مرتع خصب ، وفنونها أساس دراسة الأسلوب وتقويته وإن أهمها ضياع لأصالة النقد وتمسك بما لا يجده نفعاً أو لا يقدم إلا عطاء يسيراً . فالبلاغة « لاسيما إلى الاستغناء عنها ، كما أنه لا سبيل إلى اتخاذ الأسلوبية بديلاً عنها » وإن الأسلوبية واللسانية ينبغي « أن توضع في خدمة البلاغة والنقد الأدبي في الحدود التي تحملها التطبيقات البلاغية والنقدية » وإن الذي « أعرض عن البلاغة لمعاييرتها وحاول رسم خطوط عريضة لنظرية شاملة في الأدب والنقد الأدبي تستفيد من النهجية التي للأسلوبية كعلم لغوي يقوم على التقرير دون المعيار » (١٧١) تعسف في حمايته ولم يستطع أن يضيف ما فيه النفع وإنارة السبيل ، لأن الأسلوبية « لا تستطيع أن تقوم مقام البلاغة على الرغم من أنها تنزل إلى خصوصيات التعبير الأدبي كانت البلاغة وحدها تعنى بها في التركيب والدلالة على السواء » ، وإن « هناك فوارق شاسعة وكبيرة بين التحليلات الأسلوبية والتحليلات البلاغية » ففي الأسلوبية يعالج التوظيف اللغوي « المفردات والجمل والمقطوع والنصوص معالجة توكونية سياسياً ونفسياً واجتماعياً » ويعالجها في البلاغة « معجمياً ونحوياً وتركيبياً وبيانياً في صحتها وفصاحتها وإدراها واقتضائها للحال » . ولا تقول الأسلوبية « هذا جيد وهذا رديء ، وإنما تقول هكذا أجد صلة اللغة بالنص ، هكذا أجد تنظيمها وسياقاتها وبنائها وأساليبها » والبلاغة « تمتلك معيارية تراثية متوازية هي دائماً قابلة للتتطور » . وتستطيع الأسلوبية

(١٧١) اللغة والبلاغة ص ٢١ ، وتنظر ص ٢٩ ، وهامش ص ٧٧ .

بامكانتها الغوص في « المستويات الصوتية والتركسية والدلالية التي للنص ولكنها تكتفي في ذلك بتقرير الظواهر دون أن تقول فيها قوله النقد » ولا سيما « قوله التراث المتتطور نفسه » و تستطيع البلاغة « أن تغوص على أدق دقائق اللغة : تراكيبيها و صورها البلاغية وأساليبها » وتقول « قوله النقد والتراث المتتطور ، و قوله الذوق ، والعلم ومعايير كافة ». وتظل الأسلوبية بعد هذا مجرد علم ألسني يتحرك بتصاميم علمية و فنية عن الكلام والمتكلم والمتلقين في حين أن البلاغة أصول و معايير و تطبيقات و نقدات و انها تتحرك بتراثتها و تطور هذه التراثية . ومن هنا فإن الخدمات الجليلة التي يقدمها اليوم التراث البلاغي العربي شيء لا يعادل بشمن » (٧٢) وهذا يدعو الى دراسة البلاغة العربية بعمق و الانفاس بما في الأسلوبية من مستجدات على أن تبقى أصولها منطلقا في تقويم النص والحكم عليه.

ولعل تحليل نص الدكتورة نجاح العطار وقصيدة فؤاد كحل (٧٣) يلقي ضوءا على أهمية البلاغة في المدرس الحديث ، فقد تعرض الباحث في تحليله للمفردات والحقول اللغوية ، والتركيب والأسناد ، وللقضايا المشتركة كالقول المأثور والظرف والنواتج ^{والمتنافرات الجدلية والتضاد} ، للتسيبهات ، وللحقيقة والمجاز . وهذا التحليل يعطي قيمة للنص ويظهر العلاقة بين الالفاظ ، ويوضح دلالة التركيب والصور الفنية التي تبعث في المتلقين استجابة لفهم النص وتدوقة والتأثير به . وأين هذا من تحليل بعض من أعرض عن البلاغة ونأى بجانبه وقال ان الأسلوبية قدر الانسان في هذا العصر على الرغم من أنها استوفت أغراضها وانتهت في أوربة ولا يتحدث عنها اليوم كبار الباحثين بعد أن « أخرج رولان بارت كتابه « الدرجة الصفر في الكتابة » واقتراح مفهوم الكتابة بدليلاً ايجابياً لمفهوم الأسلوب ، فقد رأى أن الجهود السابقة كلها في محاصرة الأسلوب جهود انتهت إلى مضائق ؟ لأن المنطلقات التي انطلقت منها كانت لاتسمح

(٧٢) اللغة والبلاغة ص ٢٩ - ٣١ .

(٧٣) ينظر اللغة والبلاغة ص ٧٥ - ٩٦ .

لمنهجية ما أن يجعل منه مادة للبحث يمكن تصنيفها بشكل علمي فاقترح مفهوم الكتابة بدليلاً لمفهوم الاسلوب » (٧٤) .

وأخذ الباحثون يتساءلون : هل ماتت الأسلوبية ؟ وعزّ على بعضهم أن تموت ؟ لأنها لم تتجاوز الاحداث ولايزال الحديث عنها قائماً في أمريكا بدليل « أن المدرسة البنوية الأسلوبية نبت في أمريكا بعد كتاب بارت بعدهما تقريرياً أو أقل من ذلك بقليل » وهذا لا يكفي أن يقال بأن الحديث تحول عن الاسلوب والأسلوبية الى الكتابة القراءة إذ « تطور الحديث عن » الدرجة الصفر في الكتابة « الى الكتابة ذات الدرجتين ، ولكن هذا في مسار وبقيت الاسلوبية بعده نشطة .

والمشكل في الحقيقة هو أن الاسلوبية محدودة في منطقاتها من الوجهة اللغوية ، أما قضية القراءة والكتابة فتتجاوز الوجهة اللغوية وهذا هو ما يوهم بأن قضية الكتابة القراءة حلّت محل المبحث الاسلوفي » (٧٥) .

وتساءل الباحثون : ما مستقبل الدراسات الاسلوبية ؟ وأجاب بعضهم : « نحن نؤمن بأن مستقبل الاسلوبية سيكون من ذهراً ؛ لأنها تثير اهتمامات الكثيرين شرط أن نقتصر بأنها ليست ملكاً لأحد دون سواه ، وإن نجتمع في إطار حلقات – للدراسة الأسلوبية فيعرض كل واحد أفكاره وتطلعاته ، ويتم التنسيق بين الجميع » (٧٦) . ودعا إلى الاسلوبية المقارنة في إطار اللغة العربية وغيرها للوصول إلى تحديد معالم « الكلمات الاسلوبية » وما يزيد في إيمانه أن البلاغة العربية قد أتفقت دراسة الجملة والصورة والمنسقة الصوتية ، وهذا يفتح باباً للاسلوبية .

لقد تصارعت البنوية والاسلوبية والتشريحية ، وظهرت تيارات جديدة والنقد العربي بين مدّ وجزر لم يستطع أن يرسو أو يتخذ له منهاجاً واضحاً .

(٧٤) مجلة فصول (المجلد الخامس - الجزء الاول سنة ١٩٨٤) ص ٢١٤ ، ٢١٨ ، والكلام لحمادي صمود .

(٧٥) مجلة فصول ص ٢١٦ ، والكلام للدكتور عبدالسلام المساوي .

(٧٦) دليل الدراسات الاسلوبية ص ١١٥ .

ويرجع ذلك الى التعصب للماهاب الطارئة وانكار ما للعرب من قدرة على العطاء ورسم منهج ينطلق من روح اللغة العربية ، وكان القدماء اكثراً فهما لطبيعة اللغة وأعظم قدرة على هضم الثقافات الأجنبية وبناء ثقافة أصلية وارسال أصول عربية .

ان الاسلوبية منهج نافع في الدراسات النقدية ، وقد يكون «النقد البلاغي» (٧٧) قريباً منها واكثر نفعاً ؛ لانه يعني بالتعبير والتصوير والتلوين ، وقد نهض بالتحليل البديع في حين أنّ الاسلوبية لم تستطع أن تنهض به لانتهايتها الى عمل صوري أهمل جوهر الأدب ، ولتحولها الى احصائيات بيانية ومعادلات رياضية أفقدت النقد أهميته وأبعدت الناقد عن مهمته وهي « تفسير النص وبيان قيمته » (٧٨) . ومن هنا كان لا بدّ من ارساء منهج عربي في النقد ينطلق من روح اللغة العربية وينتفع بما يستجد ، ولا بدّ من نبذ التعصب للمناهج المتضارعة والموت من أجلها ؛ لأنّها مزقت النقاد وفرقتهم شيئاً وأحزاباً متناحرة ، وجعلت النقد لوناً من الرقى والكلام الذي لا يكشف عن معنى ، ولا يوضح هدفاً ، ولا ينير سبيلاً . وأصبح بعض النقاد يتكلّم بما لا يفهم ولا ينفع ، وأصبح القارئ كذلك الأعرابي الذي وقف على مجلس الأخفش فسمع كلام أهله في النحو وما يدخل معه فحار وعجب وأطرق ووسوس فقال الأخفش : « ماتسمع يا أنا العرب ؟ » قال : « أراكم تتكلّمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا » (٧٩) .

وصفة القول : أنّ الحصومة العنيفة بين النقاد لا تخلق حواراً هادئاً يهدف الى ارساء منهج نceğiي يخدم الأدب العربي ويتطوره ، وأنّ التعصب لمنهج أو محاولة فرضه لا يتحقق غاية في زمن تعددت فيه الاتجاهات واتسع القول

(٧٧) ينظر في مجلة المجمع العلمي العراقي (المجلد الثامن والثلاثون - الجزء الثاني والثالث سنة ١٩٨٧) ص ١٩٥ - ٢١٢ .

(٧٨) تنظر مجلة ادب المستنصرية (الجزء السادس عشر) ص ٢٤١ .

(٧٩) الامتناع والمؤانسة ج ٢ ص ١٣٩ .

في الأنواع الأدبية ، وأن التنكر للتراث ياغي تطور الفكر العربي ويقطع الصلة بين ماضي الأمة العربية وحاضرها ويخلق اتجاهها يتذكر للحاضر ويلغي كل جهد بناء بذله المعاصرون ، وأن الاطلاع على تراث الأمم وهضميه يشرع أبوابا على أدب متجدد ونقد متتطور . ومن هنا كانت الأسلوبية منحى من مناحي الدراسة النقدية لا يسلب أصالة النقد العربي ولا يأتي بما لا يفع وينير السبيل إذا أحسن الانتفاع بها وبالتراث البلاغي الذي يمكن أن يكون معينا ثرا للمجددين ، ومؤشرآ للحداثة التي يسعون إليها .

إن الأسلوبية منهج لم يحسن الباحثون استئماره ، وكان تعلقهم بالتنظير وعرض الآراء المتضاربة والتعصب المقيت مدعاة إلى حصرها في نطاق لا يخدم درسا ولا يحقق هدفا ، ففي الوقت الذي اتفق فيه القدماء أو كادوا على تحديد الأسلوب ووضع أصوله ومعاييره اختلف المعاصرون في فهمه وذهبوا مذاهب شتى ، وجاءت الأسلوبية لترسيخ في اختلافهم وتناحرهم ، وتحدى تناقضها بينهم ، ولتحلق قوماً متبعصون لها ويتذكرون للتراث العربي ، وتدفع قوماً إلى التلقيق بينها وبين التراث ، وتجعل قوماً ينفرون منها لأنها لم تكن بديلاً يعني ، ومنهجاً يثري ، وإنما كانت قدرة على المحاجة والتنظير والتفنن في الاقتباس والنقل ، وإدلالاً في وضع المصطلحات المهمة وصياغة الكلام بأسلوب لا يفهم .

لقد كانت دراسة الأساليب البلاغية واضحة وكان التحليل موافقاً والدليل مقنعاً ، فأصبحت في هذا الزمن رقى ومجالاً لعرض الثقافة وميداناً للاغراب ، وإذا بقىت الأسلوبية كما عرضتها الكتب والبحوث فإنها ستكون « فلسفة موت الإنسان » لا بعادها عن روح الأدب وانصرافها إلى المماحة والحدل وتحولها إلى معادلات رياضية وأحصائيات بيانية ، وحين تبتعد عن النص وتجعله ركاماً يظل السؤال : « الأسلوبية إلى أين ؟ » .